# الاسترقاق والعلاقات الأسرية في تطوان القرن 19 م:
## الإماء السوداوات وأبناؤهن بين الاعتراف والإقصاء

د. حسن أكدي
باحث في حقل التاريخ الاجتماعي
hassan.akdi17@gmail.com
المملكة المغربية

**الملخص**

يتناول البحث وضع الإماء السوداوات داخل المجتمع التطواني خلال القرن 19م من منظور التاريخ الاجتماعي، عبر تحليل أشكال الاستغلال والعلاقات الأسرية التي نسجت داخل البيوت الحضرية الثرية. ويركز البحث أيضا على مظاهر الاستغلال الجنسي للإماء وآثاره الاجتماعية، وعلى وضعية أبنائهن بين الاحتواء العائلي والإقصاء المرتبط باللون والنسب. كما يكشف عن الكيفية التي تحول بها نظام الرق إلى بنية اجتماعية كرست التراتبية والتمييز داخل المحتمع التطواني. ويعتمد البحث على قراءة تحليلية للسردية المحلية لإبراز تاريخ الفئات المهمشة وإعادة مساءلة العلاقة بين العبودية والسلطة والهوية الاجتماعية.

**الكلمات المفتاحية:** الرق والعبودية، الإماء السوداوات، الإقصاء الاجتماعي، تطوان القرن 19م، الاستغلال الجنسي.


© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

**Abstract**

This study examines the condition of Black female slaves with Tetouani society during the 19th century from a social history perspective. It explores the various forms of exploitation and domestic relations that emerged within affluent urban households. The study also investigates the manifestations of sexual exploitation endured by female slaves and the social repercussions that resulted from it, particularly considering the status of their children, whose position fluctuated between inclusion and exclusion according to skin color and lineage. Furthermore, the research demonstrates how slavery evolved into a social institution that reinforced social hierarchy and discrimination within Tetouani society. Drawing on an analytical reading of local narratives, the study seek to shed light on the history of marginalized groups and to reassess the relationship between servitude, power, and social identity.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

## المقدمة

تعد دراسة الإماء السوداوات داخل المجتمع التطواني خلال القرن 19 م مدخلا أساسيا لفهم البنيات الاجتماعية والثقافية التي حكمت العلاقات داخل البيوت الحضرية الثرية، حيث لم يكن نظام الرق مجرد ممارسة اقتصادية قائمة على التملك والخدمة، بل نسقا اجتماعيا معقدا تشابكت فيه السلطة واللون والنسب والجسد داخل فضاء أسري تحكمه تراتبية دقيقة. فالإماء لم يشكلن عنصرا هامشيا عابرا في الحياة اليومية للحاضرة، بل كن جزءا من البنية الداخلية للأسر التطوانية، يسهمن في استمرارية النظام المنزلي والاقتصادي، وفي الوقت نفسه يعشن أوضاعا اتسمت بالهشاشة والاستغلال والإقصاء الرمزي.

وتزداد أهمية هذا الموضوع بالنظر إلى محدودية الدراسات التي تناولت التاريخ الاجتماعي للإماء داخل المجال الحضري المغربي، خاصة ما يرتبط بالعلاقات الأسرية، والاستغلال الجنسي، ووضعية أبناء الإماء داخل مجتمع محافظ كان يربط المكانة الاجتماعية بالنسب واللون والثروة والأصل العائلي. لذلك، فإن مقاربة هذه الشريحة لا تهدف فقط استعادة تاريخ المهمشين، بل تسعى أيضا إلى تفكيك الصمت الذي لف تجاربهم داخل الوثائق العدلية والسرديات المحلية، والكشف عن التناقض القائم بين الخطاب الأخلاقي والديني من جهة، والممارسات الاجتماعية من جهة أخرى.

وانطلاقا من ذلك، يحاول هذا المقال دراسة وضع الإماء السوداوات بتطوان القرن 19 م، من خلال تحليل مظاهر الاستغلال الجنسي داخل البيوت التطوانية الثرية، وآثاره على الأسرة والمجتمع، ثم تتبع وضعية أبناء الإماء بين إشكالية النسب ونظرة المجتمع، وصولا إلى التحولات التي عرفتها حياتهم بعد وفاة السادة. كما يسعى البحث إلى إبراز الكيفية التي أنتج بها نظام الرق شريحة اجتماعية معلقة بين الإدماج والإقصاء، حيث كان الاحتواء يتم وفق منطق المنفعة والخدمة، دون أن يتحول إلى اعتراف اجتماعي أو حقوقي كامل.

## أهمية البحث

في كونه يسلط الضوء على شريحة مهمشة داخل التدوين التاريخي الرسمي، عبر تناول إشكالية دقيقة تتعلق بالاستغلال الجنسي للإماء بالبيوت التطوانية الغنية وآثار ذلك على العلاقات الأسرية، مع فهم ارتباط العبودية بالبنى الاجتماعية والثقافية والذهنية للمحتمع التطواني خلال القرن 19م.

## أهداف البحث

تتلخص في الجوانب التالية، تحليل مظاهر الاستغلال الجنسي وآثاره داخل الأسر الثرية، مع فهم طبيعة العلاقة بين الرق والبنية الاجتماعية والتراتبية داخل الحاضرة.

## إشكالية البحث

تتحدد في سؤالين مركزين:

- كيف أنتج نظام الرق وضعية الإماء السوداوات وأبناهن داخل البنية الأسرية والاجتماعية بالبيوت التطوانية الغنية؟
- ما مظاهر الاستغلال الجنسي للإماء الذي تعرضن له وما آثار ذلك على أبنائهن ؟


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

### فرضيات البحث

نفترض الآتي:

- أن الاستغلال الجنسي للإماء السوداوات كان ممارسة اجتماعية مرتبطة ببنية السلطة داخل البيت الحضري.
- أن أبناء الإماء عاشوا وضعية اجتماعية هشة بين الاحتواء العائلي وغياب الاعتراف بالنسب.
- أن إدماج أبنائهن ظل وظيفيا مرتبطا بالخدمة والمنفعة أكثر من كونه إعترافا اجتماعيا كاملا.

### أولا: الدراسات الزنجية كمدخل لتناول تاريخ الهامش في تطوان

الدراسات الزنجية أحد المداخل المعرفية الضرورية لفهم تاريخ الاسترقاق داخل المجتمع الإسلامي الحضري، لما تتيحه من أدوات تحليلية تعيد الاعتبار لفئات تاريخية طمس صوتها في التدوين التاريخي، وفي مقدمتها الإماء السوداوات. فالتاريخ الاجتماعي للمدن المغربية، ومنها تطوان خلال القرن التاسع عشر، لا يكتمل دون مساءلة أوضاع السود المسترقين داخل الفضاء المنزلي الحضري، والكشف عن تمثلاتهم الاجتماعية ومسارات اندماجهم أو إقصائهم داخل البنية الأسرية والاقتصادية. وقد أسهمت مثل هذه الدراسات الزنجية، منذ أعمالها التأسيسية، في تفكيك الصمت الأرشيفي الذي لف حياة العبيد والإماء، من خلال ألوان مختلفة من المصادر والسرديات، باعتبارها منابع موثوقة لصوت المستضعفين. والواقع أن دراسة الإماء السوداوات بتطوان تعاني من إشكالية مركزية تتمثل في غياب السرد الذاتي، إذ لا نكاد نعثر على أدب لهن خارج ما منحه السادة في عقود البيع والشراء أو الوصايا أو تدوين يؤرخ لأحوالهم، وهو ما يجعل الدراسات الزنجية أداة منهجية لتفكيك هذا الصمت عبر قراءة ما بين السطور. فكما يذهب عبد الله حمودي[1]، فإن الوثيقة ليست مجرد معطى قانوني، بل هي نص اجتماعي يعكس موازين القوة، والتمثلات الذهنية، وحدود الاعتراف بالآخر. ومن هذا المنطلق، تصبح العقود العدلية والوصايا بالعتق ووثائق الزواج أرضية تتضمن عناصر دالة على موقع الأمة داخل المخيال الاجتماعي التطواني، أكثر مما هي مجرد معاملات انتهت صلاحيتها.

من ناحية أخرى، تكتسي تطوان خصوصية تاريخية باعتبارها حاضرة أندلسية التكوين، احتضنت التناقضات بين ذهنية تشبعت بثقافة خطاب ديني محافظ وممارسات اجتماعية كرست وجود العبودية داخل البيوت الثرية. فالدراسات الزنجية تساعدنا على فهم هذا التناقض من خلال تحليل العلاقة بين اللون، والنسب، والحرية، حيث ظل السواد قرينا بالاسترقاق حتى بعد العتق، وهو ما يفسر هشاشة وضع أبناء الإماء، كما تكشفه بعض الشذرات التي جاءت بها السرديات المحلية.

وبما أن غالبية رقيق مجال المجتمع التطواني كانت موسومة بالبشرة ذات اللون الأسود 'الزنوج'، فإننا سنحاول وعبر ما توفر لنا من وثائق طرق جوانب تاريخية معينة لهذه الفئة الهامشية/ الفقيرة، بالتركيز بالأساس على العنصر النسوي منهم 'الإماء' لاعتبارات أهمها: محدودية المادة المصدرية التي تخص فئات الرقيق بالمجال التطواني، إذ يصعب تقديم دراسة مفصلة عن تاريخ الاسترقاق به أمام الندرة الوثائقية الخاصة بهذه الشريحة، ثم أنها فئة تعتبر في أسفل الترتيب الهرمي لمجتمع هذا المجال، إذ كان كل من مصيرهم وحركيتهم و واقعهم المادي وآفاقهم مرتبطا غالبا بأسيادهم « فالعبد شئ يُملك كباقي الأشياء الأخرى، بل إنهم عدّوه من متاع السيد فالعبد وماله ملك لسيده. ولذلك كان العبيد يباعون في الأسواق إلى جانب الأنعام»[2]، بل تصفحنا

---

[1] – راجع، عبد الله حمودي، الشيخ والمريد، النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة يليه مقالة في النقد والتأويل. تر، عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، البيضاء، ط 4، 2010.

[2]– عبد الحي اليملاحي، الفكر الديني بالمغرب، 1171-1283 ه. دكتوراه في الأدآب، نوقشت بكلية الأدآب والعلوم الإنسانية بتطوان، السنة الجامعية، 2006/2005. ص، 210.


© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

لبعض عقود الزواج يظهرهم وكأنهم جزء من أملاك أو هدايا لاغير " وقفطان مشجر كبير بالذهب وءاخر صغير مشجر من غير ذهب وزربية وخادم وثمان فضالي..."[1] وكذلك هنا نجدهم ضمن " هدية ثلاثة عبارق وفرخة مع خادم وسط مع زربية قبض والد الزوجة..."[2] وحينما يتوفى السيد تنقل الى الوارث كجزء من الإرث وفق الوضعية التي يقررها السادة، " وذلك في الإرث والعلم مع جدها وما وجب له في الآمة التي عتقت عنها..."[3].

وهم بالتالي نوع من الفقراء الذين حرموا من حريتهم بشكل من الأشكال وسخروا فقط فيما يحقق راحة وسعادة أولئك الأسياد البيض، إضافة لهذا فالتركيز على الإماء وإن كان أصعب، فالملاحظ في تقصي الوثائق التي حصلنا عليها كثافة حضورهن مقارنة مع العبد الذكر، ومن جهة هي فرصة لاستحضار ما قام به هذا العنصر النسوي المهمش من أدوار اجتماعية فاعلة ذات قيمة مقارنة بالحرائر من نسوة المجال التطواني، خاصة وأن الذهنية المجتمعية آمنت باستمرار ممارسة الرق في المدينة حتى أضحت ممارسة اجتماعية معترف بها ضمن الأعراف المحلية، وليس مجرد حالة صرفة من التملك الفردي[4]. فهذه الظاهرة لم تكن عابرة أو هامشية، بل كانت جزءا من هيكل اجتماعي متشابك يعتمد على الأطر الشرعية والتنظيمية لسوق الرقيق في المدن المغربية خلال القرن 19م، حيث كان يتم جلب الرقيق من أفريقيا وترويجهم كسلعة اقتصادية داخل سوق النخاسة وحياة الأسر الثرية، مما يعكس اندماج العبودية في النسيج الحضري والاقتصادي أكثر من كونها ممارسة استثنائية ضمن المجتمع المغربي التقليدي.

كما أن الدراسات الحديثة في تاريخ العبودية والعرق في المغرب تؤكد أن هذه الممارسة ارتبطت بتراكمات ثقافية أعمق، ففي كتابه المغرب الأسود: تاريخ العبودية والعرق والإسلام يشير شوقي الهامل إلى أن السود كانوا في كثير من الأحيان يتم تهميشهم داخل المجتمع المغربي وتحميلهم رموزا سلبية، وهو ما ساهم في تشكيل تمثلات ثقافية قائمة على التفريق بين البيض والأفارقة المسترقين، ما جعل العبودية والعنصرية مرتبطتين بنظام قيمة اجتماعي لا يقتصر على التجارة وحدها، بل يمتد إلى بنية المعاملة والتمييز داخل الحياة اليومية[5].

ولا يقل السياق الاجتماعي أهمية عن الجانب الفقهي – التشريعي، حيث كان قانون السوق يسير جنبا إلى جنب مع الأعراف الفقهية ضمن الإطار الزمني آنذاك، وهو ما يسمح بفهم وضع الإماء في المجتمع ليس باعتبارهن فقط كأشخاص يتم

---

1 – عقد صداق مؤرخ في 6 محرم 1211ه/ 12 يونيو 1796 م، ورد عند الطيب أجزول، أرشيفات عائلية من تطوان، (1725-1972)، دار أبي رقراق للطباعة والنشر الرباط، ط 1، ص، 67.

2 – نفسه، ص، 65.

3 – نفسه، ص، 107.

4 – الرجوع إلى نماذج من النوازل والقضايا الشرعية يبرز مدى درجة تغلغل ظاهرة الاسترقاق في حياة البيوت التطوانية الغنية، وهذا ما يشير له باحثون في دراساتهم مثل آسية الهاشمي البلغيثي التلمساني، العبودية والنخاسة، بالرقيق الأسود في مدينة تطاون إلى منتصف القرن العشرين. مطبعة المعارف الجديدة، المغرب ط 2020، صص، 34-35.

5 – قدم لنا شوقي الهامل دراسة شاملة، مدعومة ببحوث دقيقة، وجذابة حول الإسلام والرق والعرق في المغرب، يمزج الهامل بين الفقه الإسلامي وتاريخ المحاكم المغربية، وروايات الرحلات الأوروبية، وسير الصوفيين، والمراسلات الديبلوماسية، والتاريخ الاجتماعي، ليفند خرافات ثقافية راسخة: فكرة وجود رق محلي إفريقي 'خيري' يختلف عن تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي، وتصوير شمال أفريقيا والمتوسط كبوتقة انصهار لا تميز بين الأعراق. يوضح الهامل أن السود غالبا ما عانوا من التهميش بالمملكة، وأن التمييز العنصري الثقافي دفع بالمولى إسماعيل باستعباد المسلمين المغاربة الأحرار على نطاق واسع، مما أسهم في بناء جيش يسند النظام القائم على الجنود السود والإماء. راجع المقال،

– Ellen Amster, « *Chouki El Hamel. Black Morocco: A History of Slavery, Race, and Islam*", The American Historical Review, V 120,Issue 3, June 2015, pp, 1142-1143.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

تداولهن، بل كمؤشر اجتماعي على الاختلافات الفئوية والتراتبية الاجتماعية والعرقية التي شكلت البنية الاجتماعية للمدينة. إن تحليل مثل هذه الجوانب ضمن سياق اجتماعي متكامل يساعد على تفسير لماذا بقيت العبودية ممارسة حتى في الفضاءات الحضرية، وكيف أن قوانين البيع والشراء، التمثلات الثقافية حول اللون والوظيفة، وأنماط السلطة داخل البيت الأسري، شكلت إطارا يسمح باستمرار هذه الظاهرة رغم التطورات السياسية والاقتصادية التي شهدها المغرب في نهايات القرن التاسع عشر .

**أولا: الاستغلال الجنسي للإماء بالبيت التطواني**

وإن كانت هناك دراسات حول العبودية في المغرب فإن البحوث التي تعالج البعد الجنسي باعتباره أساسيا للكشف عن الجانب المظلم الذي عاشته الإماء لاتزال نادرة، لذلك سنحاول هنا استثمار قصة واقعية في تاريخ المدينة كشفت عنها إحدى الباحثات في إحدى أبحاثها كمصدر أولي لإبراز ما قاسته أجساد الكثير من الإماء أحيانا من استغلال جنسي كن عرضة له مرارا، والذي سيظل ملغيا ومغيبا من ذاكرة المجتمع مادام يتعلق بذوات لهامشيات منسيات. لذلك نتساءل، كيف يمكن قراءة هذه القصة بوصفها بنية تاريخية، لا مجرد واقعة خصت أسرة تطوانية فقط؟

لا ننسى أن تمتع السيد بجسد الآمة لم يكن انحرافا فرديا، بل ممارسة محمية اجتماعيا ومؤطرة فقهيا، ففهم وقائع الاستغلال الجنسي للإماء بمعزل عن الإطار الفقهي والقانوني الذي شرعن علاقة السيد بالأمة، حيث اعتبر جسدها جزءا من الملكية الخاصة، وهو ما ألغى عمليا أي إمكانية لاعتبار العلاقة علاقة رضائية، وبهذا المعنى، فإن الاستغلال الجنسي لم يكن سلوكا معزولا، بل ممارسة محمية ببنية قانونية–اجتماعية كرست اختلال ميزان القوة بين الطرفين. ويتضح من تاريخ الحاضرة بأن التسري والمعاشرة الجنسية للإماء الصغيرات لم تنج أو تسلم منها حتى بيوت علماء وفقهاء المجتمع التطواني رغم ما عرف عنهم من ورع وتقوى واستقامة واعتصام بأحكام الشريعة الإسلامية، إذ تكشف لنا الحكاية أن فقيها وأديبا غنيا من أصول جزائرية يدعى بالسيد 'عبد القادر بوغدة' اشترى طفلة ذات الإثني عشر ربيعا تدعى مبروكة، ستجد نفسها في بيت تطواني مترامي الأجنحة والباحات الكبيرة، حيث سلمها سيدها لرئيسة جناح الخادمات والإماء "طاطا عنبر" وهي عبدة آمة بدورها، لكنها مسنة وذات خبرة وتجربة ناضجة نادرة في مجالها[1].

بداية المعاناة التي ستواجه هذه الطفلة الصغيرة المسماة مبروكة ستنطلق منذ اللحظات الأولى التي دخلت فيه لهذا البيت الفسيح الأنيق والفخم في مكوناته وتصميمه وآثاثه، إذ بمجرد أن تسلمتها "الطاطا" " حدجتها بنظرات قاسية مخيفة، وسعرت لها خدها، وقطبت جبينها، وجذبتها إليها من يدها الصغيرة النحيلة، بعنف وفضاضة، وهي تتمتم متعوذة من شرها ومن الشيطان الرجيم، بينما الصغيرة ترتعش فرائصها هلعا ورعبا منها"[2]. هذا يكشف بوضوح أن جسد الأمة بوصفه مجالا خالصا للهيمنة، لا ينظر إليه كذات إنسانية بل كأداة للخدمة والشقاء، ويزداد التشيئ حدة حين نقارنه بالصمت الذي يلف معاناة الطفلة داخل ثنايا الحكاية، حيث تسجل الواقعة دون أي مساءلة أخلاقية للسيد الفقيه، مما يعكس اختلالا بنيويا في منظومة العدالة الاجتماعية.

فتتبع قصة الآمة يكشف أن العنف الذي مورس عليها، لم يبدأ بالفعل الجنسي، بل سبقه عنف رمزي تمثل في أسلوب التهديد والوعيد الذي اعتمدته رئيسة الخدم عند تحديد مهامها داخل منزل السادة. ويعد هذا الترهيب آلية أولية لتطبيع الخضوع، حيث يعاد تشكيل وعي الأمة منذ دخولها الفضاء المنزلي بوصفه فضاءا للعقاب والانقياد لا للحماية أو الرعاية، "ختمت درسها النظري لها عن اختصاصاتها، بسلسلة من عبارات الشتم والسب واللعن، المصحوبة بعبارات التهديد والوعيد: بالضرب والجرح والكي،

[1] – العبودية والنخاسة بالرقيق الأسود في مدينة تطاون...، م س، ص، 29.

[2] – نفسه، ص، 30.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

إذا ما هي تهاونت في القيام بالمهام المسندة إليها في نطاق اختصاصاتها، شأنها شأن زميلاتها من الخادمات والجواري والإماء"[1]، وإن كان سيد البيت غائب هنا عن متابعته ما يجري بخصوص إمائه الصغيرات، رغم صفته العلمية والفقهية، فهذا لا يمكن قراءته بوصفه غيابا فعليا للسلطة، بل باعتباره شكلا من أشكال التفويض الضمني للعنف داخل البنية المنزلية. فالفضاء المنزلي يتحول هنا لمجال مغلق تمارس داخله السلطة دون رقابة، مما يسمح باستمرار أنماط متعددة من الإيذاء الجسدي والنفسي في حق الإماء، وخاصة القاصرات منهن.

يحضر كذلك الترهيب في الحياة القاسية لهذه الأمة ضمن هذا البيت ب"وجوب حضور العملية التأديبية لأحد العبيد الصغار، بجناح الخدم والعبيد الذكور، ترهيبا وقمعا وردعا لهن جميعا"[2]، ويفهم من هذا بوصفه شكلا من 'التنشئة' القسرية، حيث يدمج الوافدون الجدد للبيت عبر صدمة أولى تعرفهم بحدود السلطة ومآلات العصيان، وبهذا المعنى، يصبح العنف وسيلة إدماج سلبية داخل منظومة العبودية، لا استثناءا عنها. أضف لهذا أن دور رئيسة الخدم يبرز ليس فقط كمكلفة بتنظيم العمل بالبيت، بل وسيطا رئيسيا في ترسيخ ثقافة الطاعة والخوف داخل المنزل. من جهة ثانية، فاستدعاء الأمة الصغيرة لحضور ذاك المجلس التأديبي لعبد ذكر، مباشرة بعد إحاطتها بمهامها، لا يمكن فهمه بوصفه ممارسة استعراضية للعقاب، بل يقصد منه ترسيخ متعمد لمنطق الطاعة عبر المشاهدة لا عبر الفعل المباشر. فالعقاب هنا لا يستهدف المدان وحده، بل يوظف كرسالة ردعية موجهة لبقية المستعبدين.

ونحن نتتبع بعض التفاصيل في الأرشيف المحلي للمدينة لاتحضر تفاصيل عقاب الإماء والعبيد وآثاره، وهو صمت يعكس حدود ما يسمح الأرشيف بتدوينه، ويؤكد لنا أن العنف الأكثر فجاجة ظل خارج النص، مادام المدون من الأسياد لا يريد الكشف إلا ما يظهره محسنا أو ذاتا تتشبع بقيم نبيلة.

وفي ظل حضور الآمة مبروكة مجريات العقاب الذي طبق على العبد الذكر، أصيبت "بنوبة من الهلع والذعر، حيث أخذت ترتعش وتهتز من قمة رأسها إلى أخماص قدميها، وسرعان ما دخلت في غيبوبة كاملة، نقلت على إثرها إلى فراشها، بركنها الخاص من جناح الخادمات والجواري والإماء"[3]، المفارقة هنا أن الحكاية تسجل سقوط الأمة في غيبوبة دون أن تتوقف عند عنف المشهد ذاته، وهو ما يعكس انحيازا يتضمنه في الغالب الأرشيف الوثائقي حيث يذكر فيه الأثر العرضي ويتجاوز السبب البنيوي. ويكشف هذا الصمت عن حدود الذاكرة أو التدوين التاريخي حين يتعلق الأمر بتجارب الفئات المستعبدة.

الهلع الذي أصاب الأمة منذ أيامها الأولى داخل المنزل يتيح فهما أعمق لما سيلي من أشكال الاستغلال، إذ يعاد تشكيل وعي الضحية في سياق تلغى فيه القدرة على الرفض أو المقاومة. فإدماج الأمة بالفضاء المنزلي كما يتضح من أحداث القصة تم عبر الرعب والصدمة الأولى، بما يعيد بناء علاقاتها بالسلطة ويؤسس لمسار تراكمي من الخضوع، لا يمكن فصله عن أشكال الاستغلال اللاحقة. وهذا ما سيظهر في مسار حياة هذه البريئة المستعبدة بمنزل سيدها الورع، فمبجرد استفاقتها من غيبوبتها شعرت بعبد الصمد –إبن السيد– " يندس معها في فراشها، ويشرع في تحسس جسدها الغض الصغير وأعضاء عفتها، بهدف اغتصابها، والعبث ببكارتها واستحياء طفولتها ...رفعت صوتها بصراخها مستغيثة مستنجدة، فبادر بالفرار من الجناح إلى غرفته"[4]. فتزامن استفاقة الأمة من الغيبوبة مع شروع ابن السيد في تحسس جسدها لا يمكن فهمه باعتباره حادثتين منفصلتين، بل

---

[1] – العبودية والنخاسة بالرقيق الأسود في مدينة تطاون...، م س، ص، 30.

[2] – نفسه، ص، 30.

[3] – نفسه، ص، 31.

[4] – العبودية والنخاسة...، م س، ص، 31.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

بوصفه انتقالا سلسا من عنف تأديبي استعراضي إلى عنف جنسي صامت. فالحدث يكشف عن وحدة منطق الهيمنة داخل البيت، حيث يتخذ العنف أشكالا متعددة دون أن يفقد طابعه البنيوي. فالواقعة تبرز الجسد الذي خرج لتوه من صدمة عنيفة يصبح أكثر هشاشة أمام الاعتداء، إذ تسلب الضحية في لحظة الإفاقة قدرتها على الوعي والمقاومة. ويفهم العبث بجسد الأمة كاستغلال متعمد لحالة العجز الجسدي والنفسي، لا كمجرد نزوة فردية. تزداد خطورة هذا الحدث حينما يقع داخل بيت يقدم صاحبه بوصفه عالما أديبا وفقيها، إذ يكشف التناقض بين الخطاب الأخلاقي المعلن والممارسة اليومية داخل الفضاء المنزلي. فصمت السيد، سواء أكان جهلا أم تغاضيا، يندرج ضمن منطق التواطؤ البنيوي الذي يتيح لأفراد البيت الذكور ممارسة الإستغلال دون مساءلة. من زاوية أخرى، يبرز الحدث عن تداخل العبودية والطفولة والنوع الاجتماعي في انتاج وضعية قصوى من التهميش، تختزل فيها الضحية إلى جسد قابل للانتهاك دون اعتبار لسنها أو آدميتها.

المفزع في محاولة "الاغتصاب" هذه، أن 'طاطا' عنبر "وبختها وقرعتها آمرة إياها ألا تعود إلى مثلها...مادام ذلك من حقه، ومن واجبها التجاوب معه وتلبية رغباته كلها"[1]، فهذا الرد اتجاه ذاك الفعل لا يعكس عدم وقوعه، بل يشير إلى أن الصمت ذاته كان شرطا لحدوثه واستمراره. فالبيت التطواني الأرستقراطي، كما تكشف هذه القصة، لم يكن فضاءا خاصا بالمعنى الحميمي، بل مجالا مغلقا تمارس داخله سلوكيات عنف لا تصل للفضاء العمومي ولا إلى سجلات المساءلة المخزنية آنذاك. وربما هذا ما سمح باستمرار معاناة الإماء بعيدا عن أي حماية اجتماعية أو أخلاقية. وغالبا أن الاستغلال الجنسي كان مشاعا في عدة فضاءات منزلية لكبار القوم بالمجتمع التطواني، وهو ما يفهم هنا " التفت حولها زميلاتها، لمواساتها ومشاركتها الوجدانية في مأساتها...حيث حكين لها قصصهن وما تعرض له جميعهن، من اعتداء واغتصاب من طرف جل رجال الأسر التي اشترتهن"[2]، ومن خلال هذا يتضح أن الاستغلال الجنسي للإماء لم يكن طارئا، بل جزءا من منظومة صلبة تكرس داخل البيوت الحضرية في عدة مدن مغربية خلال تلك الفترة.

نص الحكاية هنا، يطرح رؤية سوسيو– تاريخية تعتبر أن الاستغلال الجنسي للإماء في بيوت أعيان تطوان لم ين سقطة أخلاقية للأفراد، بل كان واقعا بنيويا يؤديها الجسد الأسود الهامشي لتعزيز شعور المركز (الأعيان) بالسيادة والقدرة، من جهة أخرى، العبارات التي استخدمت بجرأة في النص"اغتصاب من طرف جل رجال الأسر التي اشترتهن"، يفكك المفهوم الفقهي التقليدي للتسري في سياقه التاريخي المأزوم. ثم أن هذا الاستغلال الذي عاناه جسد الإماء الزنجيات لم يجد له أي حماية سوى بروز تضامن هامشي -كما يظهر في نص الحكاية –بين الزميلات في جناح الإماء، وهي آلية دفاعية يخلقها الهامش لمحاولة ترميم الذات المنكسرة أمام توغل سلطة الأسياد (المركز).

**ثانيا: آثار الاستغلال الجنسي للإماء على الأسر التطوانية الغنية**

تظهر قصة العنف الجنسي الذي تعرضت له الأمة الصغيرة أن آثار هذه الممارسات لم تنحصر في جسد الضحية، بل امتدت لتصيب بنية أسرة الأسياد نفسها. فالصمت الأبوي، وتورط الأبناء، وغياب أي مساءلة داخلية، تكشف عن اختلال أخلاقي عميق للتنشئة بالفضاء المنزلي التطواني، حيث تتحول الأسرة إلى وسيط لإعادة إنتاج الهيمنة بدل أن تكون إطارا للضبط والحماية. وبذلك، يغدو العنف الجنسي جزءا من سلوكيات ذهنية ذكورية ترسخت في نظام اجتماعي يقوم على التمييز والاستباحة. والسؤال هنا، ما هي المشاكل التي أنتجها الاستغلال الجنسي للإماء على حياة أفراد أسر السادة أنذاك؟

---

[1] – نفسه، ص، 31.

[2] – نفسه، ص، 32.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

" اهتز بيت أسرة وعائلة الفقيه السيد عبد القادر بوغدة ومن ورائه المجتمع التطاوني برمته...[التي] زلزلت أركانها، والتهمة الجنسية الفظيعة التي فاحت رائحتها الكريهة بظهور علامات الحمل على الأمة مبروكة"[1]. يكشف هذا الحدث هنا عن مفارقة جوهرية في تمثل جسد الأمة داخل بيت السادة، فهو جسد مباح حين يكون صامتا ومخفيا، لكنه يتحول إلى مصدر خطر رمزي حين ينتج أثرا اجتماعيا كالحمل. بذلك، ينتقل الجسد من كونه موضوع سيطرة خاصة إلى عبء يهدد التوازن الرمزي للأسرة داخل المجتمع التطواني. فمن خلال لغة سيد البيت يبدو أن الحمل تحمل تبعاته الأمة التي لم تكن تملك حياله أي قدرة على الرفض. وبذلك، يتحول جسد الضحية إلى موضع إدانة، في حين يمحى الفاعل الحقيقي من السرد، سواء كان أحد أبناء السيد أو من محيطه. لذلك نجد السيد بوغدة يعيش حيرة وارتباك أمام هذه المشكلة مما يعني أن الحدث ينقلنا من مستوى الفضيحة الأخلاقية إلى مستوى أزمة السلطة الأبوية والعائلية، " هذا ما أثار بلبلة واضطرابا في بيتنا، وصار مدعاة للريبة والشك بين سائر أفراد أسرتنا وعائلتنا، وأفقدها عنصر الثقة...جميعهم أصبحوا يلاحقونني بنظرات الشك والحيطة والحذر، باعتبار أنها ملك يميني أنا "[2]، تكشف تطورات قضية حمل الأمة أن السيد لم يعد قادرا على الوصول للحقيقة أو إنصاف الضحية، بقدر ما أصبح همه إيجاد مخرج فوري به يحمي صورة الأسرة ويوقف تداول الخبر اجتماعيا. وهكذا تستبدل العدالة بالحلول التي تصدر الأزمة خارج البيت حفظا لسمعته وأهله. وهذا ما يفسر توجهه لصهره بطنجة ليبحث معه عن حل اجتماعي – عملي يحد من انتشار الفضيحة ويعيد ضبط التوازن الرمزي للأسرة. " فإنني أعتقد جازما أن ارتكابها لهذا الخطأ الشرعي...كان من لطف الله تعالى، بك وبولديك الإثنين...وإلا لما ترددت في الكذب والافتراء إما عليك شخصيا، أو على أحد ولديك، وإلصاق تهمة عارها بأحدكم"[3]، وهنا وجد في نصيحة صهره سندا وشعورا بالأمان فاستقر رأيه على أن يتبنى ولد الأمة السوداء و يتولى" تربيته وتعليمه مستقبلا، لوجه الله تعالى. لكنني لن أعترف به، ولن أنسبه إلى أسرتي وعائلتي ما حييت"[4].

في الواقع يمثل الحل الذي استقر عليه رأي السيد بوغدة صورة صارخة لازدواجية الخطاب الديني حين يفصل عن العدالة. فرغم مكانته كفقيه وأديب، لم يسع بوغدة إلى إحقاق الحق أو محاسبة الجناة، بل لجأ إلى حل ظاهره الإحسان وباطنه التستر على الجريمة وحماية الشرف الاجتماعي. إن هذا السلوك لا ينصف الضحية، ولا يعيد الاعتبار للأمة، بل يكرس منطق الهيمنة، حيث يختزل العدل في الصدقة، وتعوض العدالة بالإحسان المشروط. وهكذا يفضح هذا الحدث توظيف الدين لتبرير الظلم، ويبرز كيف يمكن للفقه حين يجرد من القيم الإنسانية أن يتحول لأداة لتكريس الصمت وإدامة العنف بدل مقاومته. ويتأكد هذا بإصرار بوغدة على صهره أن يتواصل مع إبنته التي هي زوجته " للالة خديجة الحضري" ليبدد شكوكها حوله وأبنائها، " من أدران هذه التهمة الباطلة...لذلك أرجو أن تشرح لها حقيقة هذه النازلة الشرعية وعواملها وأسبابها بسائر ملاباساتها"[5].

الغريب أن صهره الذي ينتمي لفئة الفقهاء والعلماء، تفهم تخوفات بوغدة ليؤكد له أن مثل هذه النوازل في سياق الحدث تعيشها "جل الأسر والعائلات الشريفة العريقة ...قد اكتوت بنارها، وأصيبت بدائها العضال...حتى تمخضت عن أبناء وبنات لها، من الجواري والإماء السود، إلى جانب أبنائها من نسائها الحرائر البيض بنات الأسر والعائلات الشريفة من الأعيان والوجهاء

1 – العبودية والنخاسة...، م س، ص، 38.
2 – نفسه، صص، 40-41.
3 – نفسه، م س، ص، 43.
4 – نفسه، ص، 44.
5 – العبودية والنخاسة...، م س، ص، 45.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

والأغنياء، ذات البجدة وكرم المحتد"[1]. فاعتبار صهر بوغدة لما وقع 'نازلة مشاعة بالبيوت الغنية بتطوان' لايندرج في إطار التهوين النفسي فقط، بل يكشف عن واقع تاريخي قائم على تطبيع الاستغلال الجنسي للإماء داخل الأسر الميسورة* في الفترات المعاصرة. فقد كانت الإماء ينظر إليهن بوصفهن جزءا من الملكية الخاصة، لا كذوات إنسانية كاملة الحقوق، وهو ما أفرز أولاد مجهولي النسب يدمجون أحيانا في البيوت دون اعتراف شرعي، أو يقصون اجتماعيا وفق منطق المنفعة والستر. ويبرز هذا الموقف كيف تحول الفعل غير الأخلاقي لممارسة اجتماعية مألوفة تحميها السلطة الاقتصادية والمكانة العائلية، في ظل غياب العدالة وتواطؤ الفقه مع الواقع الاجتماعي، ومن ثم، لا يعكس النص حالة فردية، بل يقدم شهادة أدبية على بنية اجتماعية غير متكافئة، كانت فيها الإماء الحلقة الأضعف، يستباح جسدهن ويمحى صوتهن باسم العرف والثراء، وحفظ السمعة.

تطرح الحكاية، مسارا آخر في تطورات حياة الأمة الصغيرة بالبيت التطواني، ينطلق من نصيحة الصهر الذي ينبه بوغدة أنه في حالة عدم تصديق زوجته خديجة ببراءة ذمته وأبنائه، فإن الحل البديل مادام حمل الأمة في بدايته، هو إرسال الأمة لأمه أمينة الورزازي، مع اختلاق رواية اغتصابها من طرف عاشق مجهول فر نحو مكان غير معروف، " أنها حامل من أحد الصعاليك السفهاء...مستغلا صغر سنها وكونها مازالت قاصرا، وظل يعاشرها في الخفاء خارج البيت، ولما عرف بحملها فر وغادر المدينة إلى مكان مجهول"[2]. فهذا الحل لا يهدف لحماية الأمة ولا إلى إنصافها، بل إلى عزل الفضيحة مكانيا وزمانيا، وتأجيل ظهورها إلى أن تهدأ الأمور. كما أن إقحام الأم العجوز في هذا المخطط، بدعوى الإحسان والتكفل، يفضح كيف يستثمر البعد العاطفي والديني لتبرير الظلم، إذ يستبدل الاعتراف بالحقيقة بسردية أخلاقية زائفة تحول الجريمة إلى حادث عرضي بلا فاعل.

وأمام هذا الحل، يعتبره الصهر فقط " كذبة بيضاء، لوجه الله تعالى، حتى يمكن لوالدتك أن تحتفظ بها وبجنينها، وعدم تركهما عرضة للضياع"[3]، والأهم هو القيام في شهر رمضان بزيارة أسرة بوغدة بتطوان لتجتمع العائلة وتتعلم التعبد وطرقه من الجليل بوغدة. وهذا تجسيد لمفارقة صارخة بين الخطاب الديني والممارسة الواقعية، حيث يستعمل الدين كأداة للتطهير الرمزي ونسيان الحدث، لا كمرجعية للعدل والحق. وهكذا يبرز الحدث كيف تحولت الأسرة، والدين، والزمان المقدس إلى وسائل لطمس العنف المسلط على الأمة، وتكريس ثقافة الإفلات من المسؤولية داخل المجتمع التطواني آنذاك.

هذا الجزء من التحليل يقودنا إلى تساؤل جديد قد يلامس جوانب من حياة هذه الفئة الهامشية بالمجال، وهو هل العتق الذي مارسته البيوت التطوانية اتجاه رقيقها الأنثوي كان فعلا قناة حقيقية نحو تحررهن*؟

**ثالثا: الآمة بين القلق الاجتماعي ووضعية الولادة**

شكلت وضعية أبناء وبنات الإماء في المجتمع التطواني خلال الفترة المعاصرة إحدى أكثر القضايا غموضا في بنية العبودية المنزلية الحضرية، إذ تداخل فيها الغموض القانوني للنسب مع الهشاشة الاجتماعية ووصم اللون والعرق. فهؤلاء المولودون داخل

---

[1] – نفسه، ص، 46.

* يشير الكتاب إلى نماذج من نوازل تتعلق بالاماء وممارسة الجنس معهن من طرف أفراد ينتمون للاسر التطوانية النبيلة وما نتج عن ذلك من آثار، راجع صص، 35-37.

[2] – العبودية والنخاسة...، م س، ص، 46.

[3] – نفسه، ص، 47.

* لابد من البحث في التراث الشعبي المحلي للمنطقة للإحاطة بقضية تحرير العبيد للكشف عن مدى صدقية قناعات المجتمع آنذاك. خاصة وأننا نجد تناقضات تحملها عدة أمثلة شعبية منها، « الدار المباركة هي د فيها مبارك ومباركة» و مثل آخر جاء فيه، « الدار المباركة هي د ما فيها لا مبارك ولا مباركة».


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

بيوت الأسياد، ورغم نشأتهم أحيانا في كنف الأسر الغنية، ظلوا محرومين من الإعتراف الاجتماعي الكامل، يعيشون وضعا معلقا بين الحرية والعبودية، وبين الإحتواء العائلي والإقصاء الرمزي. وقد جعل انعدام النسب الواضح منهم فئة هشة، عرضة للبيع، أو التهميش، أو الإستغلال بمختلف أشكاله. وهو ما فتح أمامهم آفاقا اجتماعية محدودة، غالبا ما اتسمت بالقسوة وعدم الاستقرار.

وفي ضوء هذا، كيف يمكننا مقاربة حكاية إبن الآمة مبروكة بوصفها نموذجا دالا يكشف عن المسارات الممكنة لأبناء الإماء داخل البيوت التطوانية الميسورة؟

الإجابة عن الإشكالية يقتضي تتبع مسارها لا بوصفه سردا متتابعا، بل باعتباره سلسلة من اللحظات الكاشفة. فقد شكل انتقال مبروكة وهي حامل إلى بيت السيدة أمينة الورزازي لحظة إحتواء نسبي، أملته ظروف اجتماعية قاهرة، لكنه ظل إدماجا مؤقتا تحكمه اعتبارات الستر لا الاعتراف.

- **الانتقال بوصفه لحظة نجاة وهشاشة**

" وهكذا أخذت مبروكة تعيش نسبيا، أسعد أيام حياتها، في بيت سيدتها...تأمر قهرمانة بيتها طاطا الياقوت أن تخفف عنها أعباء اختصاصاتها ما أمكنها ذلك، وتكلف غيرها من الخادمات والجواري والإماء بإنجازها بدلا منها، مراعاة لحملها"[1]، يكشف المتن أن التحسن النسبي الذي شعرت به الآمة مبروكة ببيت السيدة أمينة لا ينبغي قراءته باعتباره إدماجا فعليا أو تحولا جذريا في وضعية الأمة، بل بوصفه نجاة مؤقتة من عنف سابق، فرضتها ظروف الحمل واعتبارات الستر العائلي. فقرار إعفائها من بعض الاختصاصات لم يصدر عن اعتراف بحقها، بل عن سلطة أبوية رحيمة مؤقتا، يمكن سحبها في أي لحظة. كما أن تكليف خادمات وجواري أخريات بمهامها يبرز بقاءها داخل منظومة العبودية، حيث يعاد توزيع العمل دون المساس بمبدأ التملك. وهكذا تكشف هذه اللحظة عن هشاشة الاستقرار الذي عاشته مبروكة، إذ ظل أمنها مرتبطا بإرادة السيدة، لا بوضع قانوني أو اجتماعي ثابت، مما يجعل السعادة الموصوفة سعادة معلقة، قابلة للزوال مع تغير الظرف أو القرار.

- **المخاض والقلق الوجودي**

عند قرب لحظة المخاض سرعان ما سيتصدع ذاك الاستقرار النسبي، وسيسيطر على تفكيرها قلق المصير ستترجمه عدة تساؤلات فرضت نفسها منها: " هل سيكون حرا أو عبدا ؟ إذا ماتت ساعة ولادتها له، فماذا سيكون مصير وليدها؟ ولو قرروا بيعها هل سيباع معها كعبد؟..."[2]، تكشف الأسئلة التي تتردد في ذهن مبروكة قبيل المخاض عن عمق الهشاشة التي تطبع وضعية الأمومة لدى الإماء، حيث يتحول الفعل البيولوجي للولادة إلى لحظة مصيرية مشحونة بالقلق، فالتساؤل عما إذا كان المولود "حرا أو عبدا" يعكس غياب أي يقين قانوني أو اجتماعي، ويبرز كيف يورث وضع العبودية بوصفه قدرا محتملا منذ اللحظة الأولى. كما أن تخوفها من مصير وليدها في حالة وفاتها أثناء الولادة يبرز إنعدام أي حماية مؤسساتية تضمن لطفل الأمة حق الرعاية أو الانتماء، في مجتمع لا يعترف بالأمومة إلا مشروطة بالنسب والحرية. أما سؤالها عما إذا كان سيباع معها في حال بيعها، فيفضح واقعا تاريخيا كان فيه الطفل امتدادا لملكية الأم، لا ذاتا مستقلة، ما يجعل الرابطة البيولوجية عرضة للتفكيك وفق منطق السوق. وهكذا تبرز هذه اللحظة أن ما سبقها من احتواء ورعاية لم يكن سوى هدنة مؤقتة، سرعان ما تتبدد أمام منطق العبودية الذي يعيد فرض نفسه بقوة في لحظة المخاض. والأكيد أن لحظة الولادة ستمنح هذه الأسئلة شكلا جديدا، غير أنها لن

---

[1] – العبودية والنخاسة بالرقيق...، م س، ص. 52.

[2] – العبودية والنخاسة...، م س، ص. 53.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

تنهي القلق، بل ستعيد إنتاجه في صيغة أخرى، مع ظهور الطفل للوجود.

- **الولادة والتسمية**

توفرت في مرحلة ولادتها كل الظروف المواتية لتجاوز عسرها وألامها، نظرا لما قدمته الطاطا الياقوت من اسعافات ولطف وحنان. " وبادرت رئيستها لإعلامها أن مولودها ذكر، و لم تلبث أن استدعت إمام جامع الحي...ليختار له إسما مباركا طيبا. فقام بكل ذلك، واختار له اسم ميمون...وهكذا تربى هذا الولد مدللا مرفها منعما في أحضان والدته، وتحت رعاية سيدتها"[1]، دونما شك فلحظة الولادة تبدو نقطة تحول في مسار حكاية الآمة مبروكة، إذ تنتقل الأسئلة الوجودية التي كانت تؤرق مبروكة إلى فعل اجتماعي منظم يهدف إلى احتواء الحدث وضبط تبعاته. فاستدعاء إمام جامع الحي لا يقرأ بوصفه إجراءا دينيا، بل كآلية رمزية لإضفاء الشرعية والطمأنينة على ولادة محفوفة بالالتباس الاجتماعي. أما اختيار اسم ميمون بما يحمله من دلالات البركة واليمن، فيعكس رغبة الأسرة في استباق القلق وتطويق الحدث بتسمية إيجابية تحول الولادة من مصدر تهديد إلى مناسبة مباركة. غير أن هذا الإحتواء، رغم ما يرافقه من رعاية ورفاه، لا يرقى إلى اعتراف بالنسب، بل يظل إدماجا عاطفيا داخل الفضاء المترلي، تحكمه إرادة السيدة وموازين السلطة، لا ضمانات اجتماعية أو قانونية.

على أي تبدو لحظة الولادة مسار جديد، لا يخرج عن منطق الاحتواء دون إدماج كامل، الذي سيطبع حياة الطفل لاحقا.

**رابعا: أبناء الإماء: بين إنتماء النسب ونظرة المجتمع التطواني**

ميمون ذاك الإسم المبارك، وما رافقه من رعاية ورفاه في بيت السيدة، لن يمنعا لاحقا تصدع الذات عند ميمون، حينما سيصطدم بمعاني اللون والنسب والإنتماء خارج أسوار البيت، " لكنه ما أن شب عن الطوق، ودخل كُتاب الحي...بدأ زملاؤه يعيرونه: بما لم يكن في حسبانه قط: ابتداء بلونه الأسود أو الأسمر القاتم، ومرورا بأمه الجارية والآمة المملوكة، والخادمة ببيت أسيادها – الذي كان يعتبره بيته ومصدر فخره واعتزازه- وليس انتهاء بكونه لقيطا هجينا مجهول الأب والنسب وابن حرام"[3].

مسار ميمون، يجسد بدقة المأساة البنيوية لأبناء الإماء، يولدون داخل العائلة لكن خارج النسب، يعيشون الرفاه داخل الجدران، ويواجهون الإقصاء خارجها. وهو ما يجعل وجودهم الاجتماعي هشا، مهما بلغت درجة الرعاية التي تلقوها في الطفولة. بعبارات أخرى، يبدو ميمون كطفل مدلل ومحاط بعناية أهل البيت، لكنه خارج هذا الفضاء المغلق كان يصطدم بالبنية الصلبة للمجتمع التطواني، حيث يشكل اللون، والأصل، والانتماء النسبي معايير حاسمة لتحديد الموقع الاجتماعي. فلحظة دخوله كتاب الحي مثلت بداية انكشاف هذه الحقيقة القاسية، إذ لم يعد يُرى ك'إبن البيت' بل ك'ابن الجارية' أي ككائن يقع في منطقة وسطى بين الحرية والعبودية. وهذا الوضع الوسيط لم يكن استثناءا، بل يعكس نمطا تاريخيا معروفا في الوسط الحضري المغربي، حيث كان أبناء الإماء يربون داخل بيوت السادة، ويمنحون التعليم والحماية، لكنهم يحرمون من النسب، ويظلون عرضة للوصم والإقصاء متى خرجوا للفضاء العام. وهكذا تبرز قصة ميمون كيف أنتج نظام الرق في تطوان هوية هشة لأبناء الإماء، هوية تقوم على القرب الجسدي والعاطفي من العائلة المالكة، لكنها تنهار اجتماعيا عند أول احتكاك بمجتمع يعرف الأفراد عبر الدم واللون والأصل، لا عبر التربية أو الرعاية. " وما أن اكتشف هذه الحقائق المرة الأليمة كلها التي زلزلت الأرض تحت قدميه، وهدت كيانه، وجعلته يكره، نفسه، وبيته وأمه والدنيا..."[2].

---

[1]– نفسه، ص. 54.

[3]–نفسه، ونفس الصفحة.

[2] – العبودية والنخاسة...، م س، ص، 55.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

انكشاف حقيقته من خلال منظار المجتمع التطواني جعلته يدخل في حالة نفسية صعبة، دفعته إلى فقدان " الثقة في الجميع، حتى في أمه، وفي ربة البيت التي تبنته، لدرجة أصبح يفكر في الانتحار، ...احتارت ربة البيت التي تبنته، السيدة أمينة الورزازي، وقررت إرجاعه إلى ولدها الحاج عبد القادر بوغدة، فهو سيده وسيد والدته"[1]. هذه اللحظة من القصة تبدو أكثر كثافة دلالية، لأنها تمثل انهيار وهم الادماج وبداية تشكل الوعي المأساوي لدى إبن الأمة. فميل ميمون لكراهية الجميع والتفكير في الموت، لا ينبغي قراءته كحالة نفسية فردية، بل كنتيجة مباشرة لوصم اللون، نفي النسب، الشعور بعدم الانتماء في مجتمع تقليدي، كان النسب هو العمود الفقري للهوية، ومن يحرم منه يحرم من الوجود الاجتماعي الكامل. من جهة أخرى، إرجاعه لبيت عبد القادر بوغدة لايقرأ كقسوة، بل كعودة إلى منطق النظام، فميمون في النهاية ملك لبيت سيده، لا فرد من سلالة السيدة. أي أنه حينما فشل الإدماج العاطفي، تم تفعيل القانون الصامت للرق.

الحل الذي اهتدى له السيد بوغدة أمام أزمة ميمون هو الاتفاق مع أفراد أسرته على إرساله للرباع عبد النبي الورداسي مدير ضيعته ليستعين به في تسيير الأعمال الفلاحية للأسرة، فكان ذلك منطلق التعجيل بشفائه وبداية حياة جديدة في كنف أسرة الرباع التي اعتبرته واحدا منهم. " لدرجة أنهم أباحوا له الدخول والخروج لدورهم جميعا، بدون استئذان، ودون أن تحتجب منه نساؤهم وفتياتهم وبناتهم العذارى"[2]. وأمام نجاحه وتمكنه من امتلاك مهارات تدبير أعمال السادة واكتسابه أموالا طائلة جعلته غنيا تم التوسط له للزواج من فتاة من " أقرانه، ذات وضعية اجتماعية مطابقة لوضعيته، حيث إنها ولدت من أمة لدى بيت أسرة السيد أحمد العبادي البرجوازية الغنية...التي حملت بها من أحد أبنائها أو رجالها، فتبنتها الأسرة وربتها، دون أن تعترف بها"[3].

الأكيد هنا، أن مرحلة إرسال ميمون إلى ضيعة الرباع تمثل منعطفا بنيويا في مسار إدماج أبناء الإماء داخل المجتمع التطواني أنذاك، إذ تنقل الولد من فضاء الإحراج العائلي إلى مجال النفع الاقتصادي، فبعد أن أصبح وجوده داخل بيت السيد عبد القادر مصدر توتر رمزي وأخلاقي، جرى تحويله للضيعة حيث أعيد تعريفه لا بوصفه ابن جارية، بل كعنصر منتج داخل منظومة الثروة الفلاحية. وفي هذا الفضاء القائم على العمل والانضباط أكثر من النسب واللون، وجد ميمون شروطا جديدة لإعادة بناء ذاته، فاندمج داخل أسرة الرباع، واكتسب مهارات عملية، وراكم مالا خاصا به، بما يعكس نمطا تاريخيا معروفا لاستيعاب أبناء الإماء خارج البيوت الأرستقراطية، غير أن هذا الإدماج ظل وظيفيا لا حقوقيا، إذ توج بزواجه من آمة أخرى من نفس البنية الاجتماعية الهشة، مولودة بدورها من علاقات غير معترف بها داخل بيت برجوازي، بما يكرس استمرار هذه الفئة في دائرة اجتماعية مغلقة.

وهكذا تكشف هذه المرحلة أن نظام الرق في تطوان لم يكن همه الأساس تحرير أبناء الإماء الزنجيات بقدر ما كان يعمل على إعادة توظيفهم داخل فئة وسيطة من الخدام والوكلاء والعمال المهرة، تضمن استمرار الاقتصاد المنزلي والفلاحي دون أن تهدد تراتبية النسب والسلطة.

---

[1] - نفسه، ص، 56.

[2] - نفسه، ص، 58.

[3] - نفسه، ص، 59.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

## خامسا: حياة أبناء الإماء بعد وفاة السيد: التحولات والمآلات

حياة هذا العبد ستأخذ مسار آخر بعد وفاة سيده عبد القادر بوغدة "الذي كان له بمثابة الأب الروحي، ...والحصن الحصين الذي يفيئ إلى ظله ويعتصم بحبله المتين وبعروته الوثقى..."[1]، بل قبل وفاته ترك وصية لولده عبد الواحد تؤكد على أن يحل محله في " أبوته وحمايته والحفاظ على حقوقه المادية والمعنوية "[2].

لكن الحفيد إبن عبد الواحد الذي رأى الثقة التي يضعها أبوه في ميمون بخصوص تدبير الثروة الطائلة واعتماده عليه في جميع أعماله، دفعت الحفيد إلى تبني موقفا متشددا من ميمون، لاسيما بعد قيام أبيه بالزواج من امرأة في مقتبل العمر حيث قرر واخوته البنات على " مقاطعة والدهم وزوجته الجديدة المذكورة، ومساومته على تطليقها، وبالتالي على عزل عبده الرباع ميمون من عمله لديه،...لكن والدهم رفض طلباته هو وإخوته كلها"[3].

يتضح أن وفاة الحامي الرمزي لميمون، ستدفع بهذا الأخير لمرحلة الخطر البنيوي التي تتهدد أبناء الإماء داخل بيوت السادة. فالحماية التي تمتع بها لم تكن قانونية ولا نسبية، بل شخصية ومشروطة بإرادة السيد وحده. ومع انتقال السلطة للجيل التالي، انكشفت حدود هذا الإدماج، إذ رأى الحفيد في مكانة ميمون داخل تدبير الثروة تهديدا مزدوجا: تهديدا للملكية وتهديدا لنقاء السلالة. فميمون، رغم كفاءته وولائه، ظل في نظر الورثة ابن جارية، أي عنصرا غير شرعي داخل مجال يفترض أن يكون حكرا على أبناء الدم. ومن هنا جاء تشددهم، ليس بدافع أخلاقي، بل دفاعا عن منطق الإرث والنسب، حيث يعاد ترتيب البيت بإقصاء كل من يذكِّر بالماضي غير المعلن للعائلة. كما أن زواج عبد الواحد من امرأة شابة أعاد إحياء منطق إعادة بناء السلالة، فصار وجود ميمون عائقا رمزيا أمام تشكيل أسرة نقية خالية من آثار الجواري. وبهذا المعنى، فإن محاولة طرده ليست فعلا فرديا، بل لحظة استعادة للنظام الاجتماعي الذي يسمح بتوظيف أبناء الإماء حين يكونون نافعين، ويقصيهم حين يصبحون مهددين. هكذا يغلق مسار ميمون الدائرة نفسها التي بدأت بولادته، من احتواء مشروط إلى إقصاء محتوم، بما يعكس الحقيقة التاريخية لوضعية أبناء الإماء في بيوت السادة بتطوان، حيث لا يمكن لأي اندماج، مهما طال، أن يتحول إلى حق مستقر دون نسب أو اعتراف.

في نفس السياق، تتوالى الأحداث في حياة ميمون لاسيما بعدما استطاعت إحدى بنات عبد الواحد إقناع أبيها بالموافقة على تطليق الزوجة الشابة وطرد الرباع ميمون، وهو ما دفع الزوجة إلى تدبير مؤامرة قتله بمساعدة أهلها وميمون، وهذا ما أسَرَّت به خادمة عبد الواحد للأبناء وزكاه الجيران الذين ظنوا أن عملية النهب لممتلكات البيت في إحدى الليالي من طرف الزوجة والرباع ميمون سوى إجراءات الرحيل العادية التي تقوم بها الأسرة. وبعد مرور الجنازة وطقوسها رفع الورثة دعوة قضائية على الزوجة وميمون الذي كان قد سبقهم للقضاء.

يتم اعتقال ميمون ومباشرة التحقيق رغم مبادرة ميمون بإرسال وسطاء لإصلاح ذات البين التي باءت بالفشل.

تعكس هذه الخاتمة من أحداث الحكاية عن الإنفجار المؤجل لتناقضات راكمها وجود ميمون نفسه داخل قلب الثروة العائلية. فهو ظل دوما كائنا مزدوج الوضع، خادم موثوق ومدبر ثروة من جهة، وكيان بلا نسب ولا حماية قانونية من جهة أخرى. فهذا الإنفصام الاجتماعي الذي منحه الثقة المالية وحرمه الشرعية العائلية، دفعه إلى " تحالف الهوامش" مع الزوجة الشابة

---

[1] – العبودية والنخاسة...، م س، ص، 60.

[2] – نفسه، ص، 60.

[3] – نفسه، ص. 63.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وأهلها، لينقلبا على السيد/الزوج. فمؤامرة الزوجة وأهلها والرباع – العبد ليست خروجا عن منطق المجتمع، بل هي استثمار ذكي لهشاشة ميمون القانونية. فالزوجة الشابة، المهددة بالإقصاء، لجأت إلى القوة الكامنة في ميمون بوصفه رجلا بلا حماية نسبية، يمكن توظيفه كأداة عنف ثم التضحية به. وهكذا يتحول إبن الأمة من وسيط اقتصادي إلى أداة في صراع داخل الفئة الغنية نفسها.

لجوءه للقضاء يعد تحولا تاريخيا في مسار العبودية المنزلية بالحواضر آنذاك، فميمون هنا يمثل إعلانا رسميا بموت التبعية. هو لم يعد يرى نفسه خادما يخشى غضب أبناء سيده، بل يرى نفسه خصما قانونيا. هذه الخطوة تعبر عن وعي هجين تشكل عبر خبرته في تدبير الثروة وخبايا قواعد العلاقات التجارية، إذ امتلك قدرات تمكنه بأن يوظف القضاء كمحاولة لفرض شرعية تعاقدية تتفوق على الشرعية العائلية التقليدية. ومن جهة ثانية، يفهم أن مثل قضاياه أصبحت لها الحضور ضمن مؤسسات المخزن العدلية بعدما كانت تدار غالبا في دهاليز البيوت والضيعات.

بهذا المعنى، فإن مسار ميمون لا يقرأ كتراجيديا فردية، بل كمرآة لانهيار بطئ لمنظومة الرق داخل المدينة، نظام يستعمل أبناء الإماء حين يكونون نافعين، ويقصيهم حين يهددون توازن النسب والثروة، لكنه لم يعد قادرا على التحكم الكامل في مصائرهم مع دخول "مؤسسات المخزن" كفاعلين جدد في تدبير قضايا الحقل الاجتماعي.

الخلاصة مما جاء في تفاصيل وأحداث الأمة مبروكة هي أن وضع الإماء السودوات بتطوان تكشف حقائق منها، أن جسد الأمة السوداء لم يكن محميا، بل مشاعا داخل البيت، والأمومة لاتمنح النسب، فالولد يرث وضع أمه، لا دم أبيه. ومن ناحية أخرى، الإدماج كان وظيفيا لا حقوقيا، يُربى، يُعلم، لكنه لايَرث، والسودوات كن قلب النظام الصامت ينجبن أبناءا يبنون ثروات لا يملكون منها شيئا.

**خاتمة**

في الختام، يكشف استحضار الدراسات الزنجية في سياق التاريخ الاجتماعي لتطوان عن بنية مركبة من العلاقات الإنسانية والفئوية، حيث لم تكن الأمة السوداء مجرد عنصر هامشي، بل كانت في قلب التفاعلات الأسرية والاجتماعية. لقد أثبتت الدراسة أن وضعية أم الولد والمخاضات العسيرة التي مر بها أبناء الإماء لم تكن مجرد قضايا قانونية أو فقهية، بل كانت صراعا وجوديا بين اعتراف النسب (القانون) وبين النظرة النمطية الدونية (المجتمع). إن تحولات هذه الشريحة بعد وفاة السيد تعكس دينامية المجتمع التطواني في استيعاب أو إقصاء مكوناته، وتؤكد أن قراءة تاريخ المدن المغربية لا يكتمل دون النبش في المسكوت عنه داخل الحريم وتفكيك علاقات القوة المرتبطة باللون والنوع الاجتماعي.

**التوصيات**

- التوسع في استنطاق الأرشيفات العائلية الخاصة بغية تقديم تفاصيل أكثر عمقا عن حياة الإماء تتجاوز ما هو موجود بالتآليف الرسمية والأجنبية.
- تبني مقاربات التقاطعية Intersectionality فدراسة وضعية الإماء السود تتطلب فهما متكاملا لكيفية تداخل لون البشرة مع الوضعية القانونية (آمة) والوظيفة الاجتماعية (الاستيلاد) لإنتاج أشكال فريدة من التهميش أو الإندماج.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

**البيبليوغرافيا**

- أجزول الطيب، أرشيفات عائلية من تطوان، (1725-1972)، دار أبي رقراق للطباعة والنشر الرباط، الطبعة الأولى.
- التلمساني آسية الهاشمي البلغيثي، العبودية والنخاسة، بالرقيق الأسود في مدينة تطاون إلى منتصف القرن العشرين. مطبعة المعارف الجديدة، المغرب ط 2020.
- حمودي عبد الله، الشيخ والمريد، النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة يليه مقالة في النقد والتأويل. تر، عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، البيضاء، ط 4، 2010.
- اليملاحي عبد الحي، الفكر الديني بالمغرب، 1171-1283 ه. دكتوراه في الأدآب، نوقشت بكلية الأدآب والعلوم الإنسانية بتطوان، السنة الجامعية، 2006/2005.
- Amster Ellen, « *Chouki El Hamel. Black Morocco: A History of Slavery, Race, and Islam*", The American Historical Review, V 120, Issue 3, June 2015, pp, 1142-1143.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/